عبد الرحمن الأبنودى

حامل هموم وأحلام البسطاء

كان لعبد الرحمن الأبنودى الفضل فى توجهى لكتابة شعر العامية المصرية، بعدما وقعت على ديوانه «وجوه على الشط» الذى اشتريته بقروش قليلة من سور الكتب بالنبى دانيال بالإسكندرية فى إحدى زياراتى لها فى أوائل الثمانينات، وقتها كنت مبهورا - أنا وأبناء جيلى فى كفر الشيخ - بمشروع أمل دنقل الشعرى، ومواقفه وتمرده على الحياه الثقافية، ومقاومته لمرض السرطان، وكنا نحفظ أشعاره ونرددها عن ظهر قلب فى أماسينا البعيدة، خاصة قصائد ديوانه «أوراق الغرفة ٨» وقصيدة «لا تصالح»، وكنت قد كتبت بعض المحاولات بالفصحى متأثرا بدنقل، وعندما قرأت ديوان الأبنودى، جذبنى إلى عالمه بمفرداته البسيطة وعالمه الأقرب إلى الحكاية الشعرية، ورحت أبحث عن دواوينه الأخرى فى مكتبات أصدقائى وفى كل مكان، فقرأت «المشروع والممنوع»، «عيال فى الليل»، «جوابات حراجى القط»، «عماليات»، «الزحمة»، «أحمد سماعين»، «أنا والناس»، «صمت الجرس» وغيرها من الدواوين، وكانت

أول محاولاتى فى العامية قصيدة درامية طويلة –لا يحضرنى اسمها– متأثرا بالقصيدة/ الديوان «وجوه على الشط»، ونصحنى أصدقائى بقراءة مشروع العامية المصرية بأكمله، فبحثت عن دواوين بيرم التونسى، وفؤاد حداد، صلاح جاهين، فؤاد قاعود، سيد حجاب، سمير عبد الباقى، زين العابدين فؤاد، قرأت لكل هؤلاء بجانب شعراء العامية فى أجيال مختلفة، لكن ظلت قصيدة الأبنودى متميزة وسط أبناء جيله والأجيال السابقة من شعراء العامية، بما تحمل من ملامح البيئة الصعيدية التى جاء منها بعوالمها ومفرداتها وموروثها الشعبى الغنائى الثرى، وارتباطها بالأرض والطين، والبسطاء من أبناء هذا الشعب، تغنى لهم بأشعاره فأحبوها بل وحفظوها، وهو أحد المجددين فى شكل قصيدة العامية مع أبناء جيله –حجاب ونجم– بعدما خلصوها من أعباء القصيدة الزجلية، ليكون لها شكلها وملامحها الخاصة.

ولد عبد الرحمن الأبنودى فى ١١ أبريل عام ١٩٣٨ فى قرية أبنود بمحافظة قنا، فى أسرة متواضعة لأب كان يعمل مأذونا شرعيا وهو الشيخ محمود الأبنودى، وانتقل إلى مدينة قنا حيث استمع إلى أغانى السيرة الهلالية التى تأثر بها، وجمعها بعد ذلك من أفواه شعراء السيرة فى الصعيد فى واحد من أهم أعماله الأدبية وهو كتاب «السيرة الهلالية»، وأبدى منذ صغره اهتماما بكتابة الشعر، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة مع رفيقيه، أمل دنقل ويحى الطاهر عبد الله،

جريا وراء الأدب والشعر، ثم حصل على ليسانس اللغة العربية من كلية الآداب جامعة القاهرة، حيث توسعت معارفه الأدبية، وعكف على قراءة كبار الأدباء والشعراء، وبدأ ينشر قصائده فى الصحف والمجلات الأدبية، وتذاع قصائده فى الإذاعة المصرية، ولأن موهبته كبيرة سرعان ما لمع نجمه فى سماء الأدب، خاصة بعد أن كتب الأغانى متأثرا بموروث الصعيد المحمل به منذ الصغر، وبعد أن كانت الأغنية فى مصر تسير فى اتجاه معين، جاء الأبنودى ليحدث بها تحولا أدهش الناس والنقاد وقتها بعدما أذيعت أغنيته الشهيرة «تحت الشجر يا وهيبة ياما كلنا برتقان»، و«عرباوى» و«عدويه» كانت هذه الكلمات فى ذاك الوقت جديدة على الأغنية، ولفتت الأنظار بقوه للأبنودى، وبدأت تذاع أغانيه بكثافة فى الإذاعة مما ساهم فى انتشارنجوميته، فكتب الأغانى للعديد من المطربين والمطربات، منهم: «عبد الحليم حافظ»، «محمد رشدى»، «نجاة الصغيرة» و«شادية» و«وردة الجزائرية» و«فايزه أحمد» و«صباح» و«ماجده الرومى» و«محمد منير» وغيرهم من الفنانين، واستطاع من خلال أغانيه الوطنية مع الفنان عبد الحليم حافظ أن يلهب حماس الجماهير، ويسكن وجدان كل مصرى وطنى شريف، وساهمت تلك الأغانى فى زيادة رصيد الأبنودى فى قلوب البسطاء من عامة الشعب، كما ساهمت حلقات «السيرة الهلالية» التى كانت تذاع فى الإذاعة مع

مطرب السيرة «جابر أبو حسين» فى اتساع شهرته أيضا.

عاصر عبد الرحمن الأبنودى جيل الحداثة فى مصر، وشهد تحولات سياسية واجتماعية مختلفة فى عهد عبد الناصر وأنور السادات، وعلى الرغم من انتقاده لكلا النظامين من خلال قصائده، إلا أنه ظل محبا ومتحمسا للرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

«تعرض الأبنودى للاعتقال أكثر من مرة حيث تم إلقاء القبض عليه عام ١٩٦٦ ضمن تنظيم وحدة الشيوعية، وأعتقل لمدة أربع شهور فى سجن القلعة وتم الإفراج عنه».

وبجانب دواوينه وأغانيه الكثيرة أصدر كتاب «أيامى الحلوة» الذى نشره من قبل فى حلقات بجريدة الأهرام فى ملحق أيامنا الحلوة، وكتابه «غنا الغلابة» دراسة عن الأغنية والقرية، كما كتب أيضا للأطفال العديد من القصص والحكايات.

ظل الأبنودى طوال حياته محافظا على نجوميته، ومتواجدا بقوة على الساحة الثقافية ومشاركا بقصائده وأغانية فى كل التحولات السياسية والوطنية، وكان قريبا من هموم وأحلام المواطن البسيط، فقصيدته «عدى النهار» جاءت بعد نكسة ٦٧، ليمتد عطاؤه حتى قصيدة «ضحكة المساجين» عقب اندلاع ثورة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١.

وقد تفاقم عليه المرض فى السنوات الأخيرة ليختار الإسماعيلية ليعيش فيها بحثا عن هواء نقى وبعيدا عن تلوث القاهرة التى لا تتحمله رئتيه التى أرهقهما كثرة التدخين، وبناء على نصائح الأطباء له، إلا أنه لم يكف عن الكتابة والإبداع إلى أن غيب جسده الموت صبيحة يوم الثلاثاء الموافق ٢١ أبريل ٢٠١٥ عن عمر يناهز ٧٦ عاما، لكن أشعاره ستظل عائشة فى الوجدان والضمير الأدبى مازالت الحياة، «فمن كتب لم يمت»،

وهو القائل:

«خايف أموت من غير ما أشوف

تغير الظروف

تغير الوشوش

وتغير الصنوف

والمحدوفين ورا

متبسمين فى أول الصفوف»

رحم الله الشاعر العربى الكبير عبد الرحمن الأبنودى.